الشعر في خدمة الدعوة الإسلامية

« غزوة بدر الكبرى نموذجا »

بقلم : نجيب الجباري
المغرب

هل أضر الإسلام بالشعر أم أفاده ؟ وإلى أي مدى كان الشعر في خدمة الدعوة الإسلامية؟

تساؤلات شغلت كثيرا من النقاد، سواء منهم المدافعون عن الإسلام أم المهاجمون، فهؤلاء يقولون إنه لما جاء الإسلام حط من مستوى الشعر وحارب الشعراء وأنزل بهم ضربة معنوية قاضية ويستدلون بالآية الكريمة التي تقول : ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون ﴿٢٢٤﴾ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ﴿٢٢٥﴾ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴿٢٢٦﴾[1] **وأولئك يؤكدون أن الإسلام لم يهاجم الشعر ولم يحارب الفن ويستشهدون بسيرة الرسول ﷺ الذي كان يتذوق الشعر، وكان يستنشد الخنساء ويقول لها : هيه يا خناس، وكان يقول لحسان: اهجهم وروح القدس معك .**

والحقيقة أن الإسلام لم يضر الشعر، وتأييده له لم يقتصر على استحسان الرسول ﷺ لكعب بن زهير، أو قوله هيه يا خناس .. بل كان تأثيره أعمق وأبعد من ذلك حيث هز الإسلام بقرآنه نفوس العرب وبهرهم بإعجازه، وملأ نفوسهم إعجابا بنبيهم ومهابة بفصاحته وبلاغته، وافتخر النبي ﷺ بذلك حين قال : «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش» كما أنه أعطى للعرب مجالا لتجديد شعرهم، وهو مجال الدعوة إلى مبادئ الإسلام النيرة الخالدة .. وقد كان الرسول ﷺ يستحسن شعر حسان ابن ثابت ويحثه هو وغيره من شعراء الأنصار على هجاء قريش والرد على شعرائها، بل إن حسانا كان يكلف بالرد على شاعر كل وفد يأتي إلى النبي ﷺ ولا سيما في عام الوفود، وهذا كله وما إليه يدفع أن يكون الرسول قد وقف من الشعر والشعراء موقفا سلبيا كما ذهب المهاجمون .

وأما الآية الكريمة التي يستدلون بها فواضح منها أن القرآن إنما يهاجم شعراء المشركين الذين كانوا يهجون الرسول . فالقرآن لم يهاجم الشعر من حيث هو شعر، وإنما هاجم شعرا بعينه كان يؤذي الله ورسوله، وكذلك استثنت الآية الشعراء المسلمين حيث قالت فيما بعد : ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴿٢٢٧﴾﴾ (الشعراء) ، وكذلك الحديث النبوي الذي يقول : «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير من أن يمتلئ شعرا»[2] . يراد به الشعر الفاحش أو الشعر المناهض للدعوة الإسلامية .

وكذلك الخلفاء الراشدون كانوا كثيرا ما يتناشدون الأشعار ويقصون بعض الأخبار عن جاهليتهم، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه نسابة راوية للشعر، وكان يتمثل به أحيانا في خطابته كخطبته المشهورة في يوم السقيفة، وكذلك كان الفاروق رضي الله عنه، الذي قال عنه ابن سلام الجمحي : «كان لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر»[3] .

وقد ساعد ظهور الدعوة الإسلامية بأحداثها وقيمها الجديدة على ازدهار بعض الأغراض الشعرية مثل الدعوة إلى الإسلام والجهاد، وشعر الفتوح والمغازي والغزوات، ومدح الرسول ﷺ ورثاء الشهداء، ومناقضة خصوم الدعوة، وعمل بالمقابل على تقلص وخمول أغراض أخرى كشعر الخمر والغزل الإباحي والمديح التكسبي ...

ومن النماذج الشعرية الإسلامية الرائعة والرفيعة المفعمة بصدق العاطفة النابعة من إيمان عميق بالخير ورفض لقوى الشر والفساد، ما قيل في غزوة بدر الكبرى .

خبر غزوة بدر الكبرى:

تعد غزوة بدر الكبرى أول مواجهة في تاريخ الإسلام بين الحق الإلهي والباطل الجاهلي، لأنها كانت الغزوة الأولى التي فتحت المجال أمام الإسلام لينتشر في أقاليم الجزيرة العربية، وليدخل التاريخ الإنساني من بابه الواسع، حيث لم يكن انتصار المسلمين في غزوة بدر المباركة على قبيلة عادية كسائر القبائل الجاهلية، بل كان انتصارا على أقوى سلطة سياسية في ذلك الوقت، وهي قبيلة قريش التي كانت تقوم بحماية البيت ومن هنا كانت الهزيمة التي لحقت بها يوم بدر هزيمة نكراء، نتج عنها تغيير في ميزان القوى السياسي والديني بلغة العصر .

و «بدر» اسم بئر حفرها رجل من غفار اسمه بدر، وقيل هو بدر بن قريش بن يخلد الذي سميت قريش به، وقيل : إن (بدرا) اسم رجل كانت له بدر .. وهي على أربع مراحل من المدينة .

وقال "ابن هشام» : نقلا عن «ابن إسحاق» : قالوا : لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها، فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم إذ ظنوا أنها لن تكون سوى مناوشة كسابقاتها والتي قتل فيها عمرو بن الحضرمي[٤]، ولما أرسل أبو سفيان خبر سرية المسلمين إلى قريش بوساطة " ضمضم بن عمرو الغفاري " تجهز الناس سراعا وقالوا : أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي، كلا والله ليعلمن غير ذلك»[٥] .

وهكذا خرجت قريش بكامل أشرافها وفرسانها لملاقاة الرسول ﷺ والمسلمين، وفي الجبهة المقابلة، جبهة المسلمين نجد الكل يجتمع حول رسول الله ﷺ يشد أزره ويؤكد له بأنهم لن يقولوا له كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام ﴿ ... فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴿٢٤﴾ (المائدة) وإنما قالوا له: نحن معك، فسر بنا على بركة الله . وما كان من الرسول الكريم إلا أن قال لهم : سيروا وأبشروا فإن الله وعدني بإحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم ..

وصدق الله وعده لرسوله الكريم، حيث التقى الجمعان يوم سابع عشر من رمضان، فانهزم المشركون وقتل من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم، ولم يستشهد من المسلمين سوى أربعة عشر رجلا ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴿١٢﴾ [٦] .

بعض ما قيل من أشعار يوم بدر

لم يكن الشعر بمعزل عن السيوف والدروع والرماح، بل رافقت قصائد الشعر الأبطال المسلمين تحمسهم وتدعوهم إلى التشبث بالإسلام والتيقن من النصر وتزيدهم تأكدا من قوتهم الربانية التي لاتقهر، فليس هناك حدث كبير إلا وواكبه الشعر ورافقه، وكان أكبر الأحداث دعوة الرسول ﷺ إلى الإسلام، وهي دعوة اضطرته إلى حمل السيف للدفاع عن الإسلام وخوض المعارك والحروب .

وكان مما قيل من الشعر يوم بدر، وتراد به القوم بينهم لما كان فيه قول «علي بن أبي طالب» :

ألم تر أن الله أبلى رسوله
بلاء عزيز ذي اقتدار وذي فضل[٧]
بما أنزل الكفار دار مذلة
فلاقوا هوانا من إسار ومن قتل

وقال كعب بن مالك أخو بني سلمة :

عجبت لأمر الله والله قادر
على ما أراد، ليس لله قاهر[٨]

وقال حسان بن ثابت الأنصاري أيضا [٩] :

تبلت فؤادك في المنام خريدةٌ
تسقي الضجيع ببارد بسام

وهي قصيدة من اثنين وعشرين بيتا يذكر فيها حسان فرار الحارث بن هشام وما لاقاه فريقه من تقتيل وتنكيل على أيدي المسلمين، يذكر ذلك في روح حماسية واضحة مفتخرة بذلك النصر الخالد، كما تميزت القصيدة بمطلع غزلي يشتكي فيه الشاعر من السقم الذي أصاب قلبه بسبب حب «خريدة»، وهو يحافظ على أصل من أصول القصيدة العربية القديمة ألا وهو المقدمة الغزلية . وقد اعتمد الشاعر في ذلك على التصوير الحسي تارة، وعلى النسيب تارة أخرى، وتكاد القصيدة وخصوصا في لحظة تصويرها للحرب أن تقترب من البنية القصصية حيث يسرد خلالها الشاعر قصة فرار الحارث بن هشام تاركا أهله في أسوأ حال من قتل وأسر :

إن كنت كاذبة الذي حدثتني
فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم
ونجا برأس طمرة ولجام

غير أن هذه اللحظة الكلية في التصوير قامت على لحظة تصويرية جزئية منحت للنص صورة التقريرية والبيانية، وشكلت البنية العميقة التي تسهم في تشكيل المعنى .

ولما انتقل الشاعر من الغزل إلى ساحة الوغى غير من لهجته وإيقاعه الشعري، فاختار من الكلمات ما يدل على الحركية والسرعة والقوة كما نجد في قوله :

طعنتهم والله ينفذ أمره
حرب يشب سعيرها بضرام
لولا الإله وجريها لتركنه
جزر السباع وأسنة بحوامي

فالشاعر يلون نفسيته تبعا لطبيعة الغرض خاصة في الجزء الأخير من القصيدة حيث سيعلن فرحته بانتصار المسلمين واندحار المشركين .

عود على بدء

حظي المتن الشعري الذي قيل في غزوة بدر الكبرى باهتمام كتب الأدب والتاريخ مثل الأغاني وسيرة ابن هشام وكتب الصحابة، مثل الإصابة والاستيعاب، والمفضليات والأصمعيات، واتخذته بعض المعاجم اللغوية كلسان العرب لابن منظور مادة صالحة للاستشهاد به على بعض القضايا اللغوية، وتحمست له بعض كتب الاختيارات لمستواه الفني كحماسة أبي تمام والبيان والتبيين للجاحظ، وغيرهما، وسلك ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات فحول الشعراء نفس المسلك .

إلا أن الإحاطة بهذا المتن الشعري أمر صعب وشاق لغزارة مادته نصوصا وأبياتا، وتنوع أغراضه كالفخر الحماسي والرثاء والهجاء والمديح النبوي . حيث لم تخل قصيدة أو مقطوعة إسلامية من الإشارة إلى عظمة الرسول ﷺ وحنكته الحربية وقيادته الحكيمة قبل المعركة وإبانها وبعدها . لكن الأهم عند المسلمين هو الاهتمام بالجماعة وبوجودها المادي والمعنوي، فكانت المعركة بالنسبة إليهم معركة الوجود أو عدمه لذلك أولوها عنايتهم وأرجؤوا مدح الرسول ﷺ لمناسبات أخرى . ■

الهوامش

(١) سورة الشعراء : الآيات من ٢٢٣ - ٢٢٥ .
(٢) ابن رشيق : العمدة، الطبعة ١، الجزء ١ ، ص١٢، تحقيق محيي الدين عبدالحميد، ١٩٦٣ .
(٣) البيان والتبيين : الجاحظ، ٢٤١:١، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٦٠ .
(٤) سيرة ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، المجلد ١، ص٦٠٥ - ٦٠٧ .
(٥) نفسه، م م، ص٦٠٩ .
(٦) سورة الأنفال الآية ١٢ .
(٧) مطلع قصيدة من ١٥ بيتا، انظر سيرة ابن هشام، المجلد ٢،ص١٢ .
(٨) مطلع قصيدة من ١٦ بيتا، انظر سيرة ابن هشام، المجلد ٢، ص١٤ - ١٥ .
(٩) قصيدة من ٢٢ بيتا، انظر ديوان الشاعر، الجزء ١، ص٢٩ - ٣٠ .